الرياء محبط للعمل

قال رب العزة فى الحديث القدسى:

١٠ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ أوَّلَ النّاس يُقْضَى يَوْمَ القيامة عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِى به فَعرَّفَهُ نعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهِدْتُ. قال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأنْ يُقَال جَرِىء فقد قيل» ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِى فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القُرآن فأُتِىَ به فعرَّفه نعَمه فعرفها، قال: فما علمتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القُرآن ، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلمَ ليقال : عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئٌ فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقِى فى النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليُقالَ: هو جواد فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار»[1].

بعض البشر توجد عنده صفات الأريحية والإنسانية، ويأمر بالمعروف

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) والنسائى في سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وينهى عن المنكر، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين، سواء كانت صحية أو اقتصادية.

لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية، لا من زاوية منهج الله، فيكون كل ما فعله حابطاً، ولا يُعترَف له بشيء، لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله.

ولذلك فلا تظن أنَّ الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ، فالله سبحانه يجازى مَن كان على الإيمان به، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير.

من صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقال عنه ذلك فقد قيل.

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن الله يجازى فى الآخرة مَنْ كان الله فى باله ساعة أن عمل.

فمن فعل عملاً من أعمال الخير وليس فى باله الذى يعطى الثواب وهو الله ، بل كان فى باله الخلق حبط عمله.

يقول الحق سبحانه عن الكافرين:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

[آل عمران :٢٢]

ومعنى « حبطت» أى: لا ثمرة مرجوة من العمل، إن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يكون لهدف يقصده.

فأىُّ عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ،ليس لها هدف.

إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغى أن يعرف الغاية منه، وما الذى يحققه من النفع؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله، وحينما يقول الحق سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

[آل عمران: ٢٢]

فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أنّ إنساناً قد يفعل عملاً هو فى ظاهره خير، فإياك أن تغتر أيها المؤمن بأنه عمل خيراً، لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى.

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً فى الدنيا وفى الآخرة؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل، لا ثقة بالآمر الأعلى.

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم به ثقة فى الآمر الأعلى.

وبعض من الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية.

يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أنَّ باستير الذى اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار.

ولهؤلاء نقول : نعم. إن الحق بعدالته أراد ذلك ولنتقاض نحن وأنتم

إلى أعراف الناس، إن الذى يطلب أجراً على عمل يطلبه ممن؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له.

فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال؟

إنَّ بالهم كان مشغولاً بالإنسانية وقد أعطتهم الإنسانية التخليد، وغير ذلك من مكاسب الدنيا.

إذن: فإذا كان الجزاء من الله، فلنا أن نسأل.

هل كان الله فى بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم؟

لم يكن فى بالهم الله، والذى يطلب أجراً فهو يطلبه ممن عمل له، ولم يُضع الله ثمرة عملهم، بل دَرَّتْ عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة، ولم يُضع الله أجر مَنْ أحسن عملاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾. [الشورى: ٢٠]

فالله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا، لكن حرث الآخرة ليس لهم.

إنهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة، ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفاسدة، وقد يوجد مَنْ عمل عملاً حسناً نافعاً للناس، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيته، ويثنى الناس عليه، أو للجاه والمركز والنفوذ.

ولذلك حين سُئل رسول الله ﷺ : مَنْ الشهيد؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١).

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع، فقتال الرجل دائماً بحسب نيته ، فالقتال مرة يكون فى سبيل الله، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله، لتكون كلمة الله هى العليا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

[التوبة: ٥٣]

قد يطرأ سؤال على خاطر المؤمن : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أنّ الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير.

فنقول: شرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله، أما أن تعمل وليس في بالك الله فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل.

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[النور: ٣٩]

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم (١٩٠٤).

فمن فعل شيئاً وليس فى باله الله، فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود، وأنه جل جلاله هو الذى سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، أما الذى لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من الله الحياة فيفنيها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

وقد صوَّر الحق سبحانه موقفهم التصوير الرائع في هذه الآية.

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء فى الصحراء ، يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجهاً إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب.

وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لو أنفقه فى أى خير فى الدنيا ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً، فهل يجد من يقبل ذلك منه؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب، لأنه فى الآخرة لم يعد يملك شيئاً.

فمن فعل وليس فى باله الله ، بل كان في باله المجد وتخليد الذكر، فقد أعطتهم الإنسانية ما يريدون ، فخلدت ذكراهم وأقامت لهم التماثيل، ومنحتهم الأوسمة ،ووضعت فيهم المؤلفات لتمدحهم.

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس.

أنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيراً، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله.

ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإذا أطعمت فقيراً فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المرءوة من أجل أن يقال عنك: إنك صاحب مروءة.

ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها ، والله عليم بكل شىء ، يعلم اسم من أقام البناء.

وعليك إذا بنيت مسجداً أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة حتى لا تدخل فى دائرة « عملت ليقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع، لأنه إن فعل حبط عمله وكان من الخاسرين ، لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ، لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله، وهو الذى لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المرائى للنس فيقول: « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا : وما لشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: الرياء».

يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا حازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟

وقال ﷺ: « إن المرائى يُنَادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر يا غادر، يا مرائى. ضَلَّ عملك وحبط أجرك، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له».

فالمرائى إنما يخدع نفسه، فهو يتظاهر بالصلاة ليراء الناس، ويُزكِّى ليراه الناس، ويحج ليراه الناس، هو يعمل ما أمر الله به، لكنه لا يعمل لله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

[البقرة: ٢٦٤]

فالذى يتصدق ويُتبع صدقته بالمنِّ والأذى إنما يُبطل صدقته، وخسارته تكون خسارتين:

الخسارة الأولى: أنه أنقص ماله بالفعل، لأن الله لن يعوض عليه، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المن والأذى.

والخسارة الأخرى: هى الحرمان من الثواب، فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا: أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو مَنْ عمستَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملاً، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس: أنه عمل فليأخذ أجره من القدرة

المحدودة للبشر، فالذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه: إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجرًا له.

وإياك أن تقول: أنا أنفقت ولم يوسع الله رزقى ، لأن الله قد يبتليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق، فعطاء الله ليس فى الدنيا فقط ، ولكن الله يريد ألا يعطيك فى الفانية ، وأبقى لك العطاء فى الباقية وهى الآخرة ، وهو خير وأبقى.

والحق سبحانه يقول عن هؤلاء الذين ينفقون مثلاً رئاء الناس:

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾. [النساء : ٣٨]

إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل الله: اختر من يُثَمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ،سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه؟

لابد أن يكون الثمن غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه- عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءنى مَنْ يعطينى أكثر من ثمنكم . وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته.

فالذى يعطى رئاء الناس نقول له: أنت خائب ، لأنك ما ثمَّنت

نعمتك، بل ألقيتها تافهة الثمن، ماذا سيفعل لك الناس؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك، فلماذا ترائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة ، ولذلك قال الحق:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

[التوبة: ١١١]

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها ، فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله.

ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله:

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾. [البقرة: ٢٦٤]

والصفوان هو المروة، وجمعه مرو، وهى حجارة بيض براقة، والمروة ناعمة وليست خشنة، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب، ولأن المروة ناعمة جداً ، فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب.

والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد.

فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة، وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغلى ، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً ؟

إنك إن فعلت فقد خِبْتَ وخسرت ، فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولذلك قال النبى ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

« رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا، ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾. [البقرة: ٢٧١]

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة، فالحق يوضح: إياك أن تنفق وفيك رئاء، أما من يخرج الصدقة وفى قلبه رياء، فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ، لأنه سبحانه يؤكد: خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمع ينتفع.

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين لا يؤمنون بالله؛ لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه فى يده ، ولا

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ومسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه .

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقى.

فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة ، أى كثيرة الثمار.

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله. فيقرب الله لهم مثلاً ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾. [البقرة: ٢٦٥]

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعنى خروج الرياء من دائرة الإنفاق فيكون خالصاً لوجهه سبحانه ، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً ، فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية أى شىء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها ، وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله.

والمراد بـ (**تثبيتاً من أنفسهم**) هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق لا حباً أحمق.

إذن : فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً فى سبيل الله: وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه ، وثبَّت نفسه ثانياً بأن وهبه المال.

وهكذا يتأكد التثبيت ، فيكون كما تصوره الآية الكريمة:

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾. [البقرة: ٢٦٥]

والجنة كما عرفنا تُطلق فى اللغـة على المكان الذى يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستـر مَنْ يدخله ، ومنها « جن» أى «ستر». ومن يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق سبـحانه يريد أن يضرب لنا المثل الذى يـوضح الصنف الثانى من المنفقين في سبـيل الله ابتغاء مرضاته وتثـبيتاً من أنفسـهم الإيمانية ضد النفس الشهـوانية ، فيكون الواحد مـنهم كمن دخل جنة كثيـفة الزرع ، وهذه الجنة توجد بربوة عالية.

وعندما تكون الجنة بربوة عاليـة فمعنى ذلك أنها محـاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنه ، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التى توجد على ربوة؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق مـاله ابتغاء مرضاة الله وتثبيـتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التى تُرْوَى بأسلوب ربانى ، فإن نزل عليها وابل من المطر أخذت منه حاجتها وانصرف باقى المطر عنها.

﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ . [البقرة: ٢٦٥]

والطل وهو المطر والرذاذ الخفـيف يكفيها لتـؤتى ضعفين من نتـاجها ، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوى الشىء مرتين، فـالضعفان يساويان الشىء أربع مرات.

والحق سبحانه يقول عن القتال في سبيل الله :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾. [النساء : ٧٤]

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج الله سبحانه ، وحينما يقول تعالى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حسب نيته.

ولذلك تساءل بعض الناس : مَن الشهيد؟ فقيل : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً.

إذن: فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أن يكون فى سبيل الله ، لأنه سبحانه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، فلابد أن تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان، فلا قتال من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ،وإنما القتال لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الله، هذا هو غرض القتال فى الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾. [البقرة: ١٩٠]

والحق ينهى عن الاعتداء، أى لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ، ولا يعتدى ، ففى قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداء ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

[التوبة: ١١١]

وما دام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهم الأشياء.

وما دام سبحانه هو الذى اشتراه فلابد أن الثمن كبير، فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً، ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى:

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾. [فاطر : ٢٩]

إذن: فالحق يُنمِّى فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذله، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له.

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة، عملية بيع وشراء، وإذا كان هذا ملكًا لله، فالله هو المشترى والله هو البائع.

وما الثمن؟

يأتى التحديد من الحق سبحانه ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾. [التوبة: ١١١]

هذا هو الثمن الذى لا يفنى ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله، وهكذا يكون الثمن غالياً.

والثمن هو الجنة ، وهو وعد بشىء يأتى من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ، فالوعد الحق هو ممن يملك ويقدر، وحيّ لا يموت.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ . [التوبة : ١١١]

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً ، وما دام الحق قد أعطى الوعد فلن يوجد من هو أوفى منه، فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله، فلا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ، ووعده حق.

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ . [التوبة : ١١١]

فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا يُقبض النفس ، فهذا فيه الموت وخسارة للمال، وكان من الطبيعى أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف.

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ ﴾ [التوبة : ١١١] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشر، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه

هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار، فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً.

ولذلك فقضية الإيمان بالله واليوم الآخر هى مطلوب الحق سبحانه من أن يكون العمل خالصاً لله ابتغاء مرضاته لا ابتغاء السمعة والصيت بين الناس ، ولا رياء ونفاقاً.

فالرياء محبط للعمل وماحق للثواب، ودليل على ضعف إيمان صاحبه ، وحين يرجع إلى ربه لن يجد له شيئاً من ثواب الآخرة ، لأنه أخذ ما أراده فى الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس، فليس له فى الآخرة من نصيب.